# تزكية النفس

## المعنى.. المنهج.. العوائق

بقلم

حمزة حمزة أبو النصر

ماجستير في التربية

مدرس بقسم اللغة العربية

بتربية المنصورة

خرج أحاديثها وراجعها قسم التحقيق بالدار

دار الصحابة للتراث بطنطا

لدار الصحابة للتراث بطنطا

للنشر - والتحقيق - والتوزيع

المراسلات:
طنطا ش المديرية - أمام محطة بنزين التعاون
ت: ٣٣١٥٨٧ ص.ب: ٤٧٧

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

**مدخل :**

إذا عطل[1] الرجل من الإيمان ، فقد عرى من كل زينة ، وخلا من كل حلية .

إن مروءته تسقط ، ويفقد قيمته فى عين من يحسن تقدير الرجال ، كان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يقول : « إنى الأرى الرجل فيعجبنى ، فأسأل : أله مهنة ؟ فإذا قيل لا ، سقط من عينى » ، هذا إذا عطل الإنسان من عمل يتكسب منه كسبًا شريفًا ، فكيف إذا عطل الإنسان من الإيمان ؟ كم تكون صورته الحقيقية شوهاء ، وإن بدت فى أعين الناس بهيّة طلية ؟ !

إنه يصير كنودًا[2]

شرهًا شديد الحب للخير[3]

طاغية مستبدًا إذا ملكت يده ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾[4]

---

(١) –عطل : يقال قوس عطل : أى لاوتر فيها ، وامرأة عاطل وعطل : أى ليس عليها حلى ، وعطل الأجير : بطل فليس له عمل .

(٢) الكنود: الكفور ، أو الذى يعد المصائب ، وينسى نعمة الله عليه .

(٣) حريصًا بخيلاً من شدة حبة للمال .

(٤) الآيتان ( ٦ ، ٧ ) من سورة العلق .

بل إنى لأتخطى كل الصفات الذميمة التى تطفح بها نفس من لم يزكه الإيمان إلى القول بأن الإنسان – ذكراً كان أو أنثى – يفقد الحياة بالمعنى الحقيقى لحياة المستنيرة الزاكية ، لا بمعناها (البيولوجى) إذا عرى عن الإيمان ، وهذا معنى قوله تعالي – داعياً إلى الإيمان – ﴿ **يأأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ (٥) .

وهل جوهر ما يدعو الله إليه عباده ، وجوهر ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ إلا الإيمان (٦) ؟

فإذا أنعم الله على الإنسان فهداه إليه ، وأخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بالله وحده ، فقد شرفه وطهره ، ومنَّ عليه بأكرم نعمة ، وأزهى حلية ، لو أن الناس تدرك قيمة ما يجمل أن يتحلى به المخلوقون – وتكون نفسه قد زكت بذلك زكاتها الكبرى بتطهرها من دنس الكفر الذى لا يطهرها منه – إن ماتت عليه – حتى الخلود فى جهنم أبد الآبدين . .

لكن عملية تزكية مستمرة ودائبة لابد أن تبدأ فور أن يدخل الإنسان حظيرة الإيمان ، وهى تزكية لا غنى للإنسان عنها إذ إن أصل إيمانه يتعرض بتقلبه بين شؤون الحياة : من ضرب فى الأسواق ، وملاعبة للأولاد ، ومعافسة للزوجات – يتعرض أصل إيمانه بسبب ذلك وغيره للبلى ، يقول رسول الله ﷺ : « إن الإيمان ليخلق (٧) فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب

---

(٥) الآية (٢٤) من سورة الأنفال

(٦) قال السدى في تفسيرها : ففى الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر .

(٧) يقال : خلق الثوب إذا بلى ، فهو خلق ( بفتحتين ) ، المصباح .

فليجدد أحدكم إيمانه » (٨) ، وهذا معنى عجيب في وصف ما يحدث للإيمان فى النفس مما يغير عليها من أعراض الحياة ، وهو دعوة صريحة من رسول الله ﷺ إلى تجديد الإيمان في النفس ، ولعل هذا هو المعنى – أ بعض المعنى – المقصود من قول أحد الصحابة لآخر – رضى الله عنهم أجمعين – : « اجلس بنا نؤمن ساعةً » .

عملية تزكية النفس يجب أن تكون مستمرة ، وألاّ تفصل بين بعضها والبعض الآخر ساعات الغفلة ، فإن ساعة غفلة واحدة تفسد جهد الإنسان فى التزكية سنة كاملة .

إن التزكية تشمير عن ساق ، وشدٌّ للمئزر ، وإيقاظ للنفس والقلب ثم هى – قبل ذلك وبعده ومعه – تذلل إلى الله أن يقبل ويوفق .

## أولا : معنى التزكية

التزكية تطهير مستمر للنفس ، ونفى دائم لخبيث المعاصى ، وأدران الذنوب عنها .

وهى مسارعة فى إتْباع السيئة – إن وقعت – الحسنة لتزيلها ﴿ إن الحسنات يذهبنَ السيئات ﴾(٩)، « وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها » (١٠) .

---

(٨) – حديث حسن ، أخرجه الحاكم ( ١ / ٤ ) والطبرانى فى الكبير كما فى المجمع ( ١ / ٥٢ ) من طريق ابن وهب ، قال الحاكم بعد هذا الحديث : رواته مصريون ثقات ، ووافقه الذهبى .

(٩) الآية ( ١١٤ ) : الأعراف .

( ١٠ ) إسناده حسن ، أخرجه الترمذى ( ١٩٨٧ ) ، والدارمى ( ٢٧٩١) وأحمد ( ٥ / ١٥٣ ) والحاكم ( ١ / ٥٤ ) والبيهقى فى الشعب ( ٨٠٢٦ ) .

وهى حساسية تورث الإنسان الاغتمام إن هو قارف الذنب عن ضعف إنسانى وتورثه الفرحة الشاكرة إن هو أصاب - بتوفيق الله له - حسنة تكتب فى صحائفه « من ساءته سيئته ، وسرته حسنته فهو مؤمن » (١١) .

إنها ارتقاء بالنفس ، وتخلية لها عما سوى الله ، حتى تكون أهلاً لأن يفعل بها القرآن الكريم فعله ﴿ اللهُ نزّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشون ربّهم ، ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله ، ذلكَ هُدَى اللهِ يهْدِى بهِ من يشاءُ ، ومن يُضْلل اللهُ فمَا لَهُ من هادٍ ﴾(١٢) .

إنها صوم فى حر ، وإسباغ للوضوء فى قُرّ ، وتجاف بالجنب فى جوف الليل وقد حلا النوم ووطئ الفراش .

إنها وإنها .. مما سيأتى له فى المنهج مزيد من بيان .

ولا يقعدنَّ أحد عن التزكية عن سوء فهم ، متذرعًا بقوله تعالى :﴿ فلاَ تُزكّوا أنفسكم هُوَ أعْلَمُ بِمنْ اتّقَى ﴾ (١٣) .

---

(١١)-إسناده صحيح ، أخرجه الترمذى (٢١٦٥) وأحمد ( ١ / ١٨ ) ، والحاكم ( ١ / ١٤ ) والبيهقى ( ٧ / ٩١ ) من طريق محمد بن مسوقة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر .

( ١٢) الآية ( ٢٣) : من سورة الزمر .

(١٣) الآية ( ٣٢) : من سورة النجم .

ولا يقعدنّ تواكلاً ، قائلاً : أما قرأتم قوله تعالى ينهى عن تزكية النفس **﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ﴾** (١٤).

لا يفعلن أحد ذلك ..

فإن آية سورة النجم وآية سورة النساء قد نزلتا فى معنى آخر للتزكية ، ولكل منهما معرض وسياق .

إنهما قد نزلتا فى معنى مدح النفس – أو الآخرين – وشكرها والمن بالعمل الذى تعمله .

يقول الله تعالى : **﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾** (١٥).

ويقول عز من قائل **﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ﴾** (١٦) .

---

(١٤) الآية ( ٤٩ ) : من سورة النساء .

(١٥) الآيتان ( ٣١ ، ٣٢ ) : من سورة النجم .

(١٦) الآيتان ( ٤٩ ، ٥٠ ) : من سورة النساء .

إن آية النجم نهى عام .. وآية النساء قالوا : إنها نزلت فى اليهود والنصارى حين قالوا ﴿**نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾[17] وفى قولهم ﴿**لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى**﴾[18] ، أو لأنهم كانوا يقدمون الصبيان أمامهم فى الدعاء والصلاة يؤمونهم ، ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم[19] ، أو لأن اليهود قالوا : إن أبناء نا توفوا وهم لنا قربة ، ويشفعون لنا ، ويزكوننا . فأنزل الله على محمد - ﷺ : ﴿**ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم**﴾ الآية [20] .

وقيل إنها نزلت فى ذم التمادح والتزكية بعامة .

**وهذه بعض صور التزكية المنهى عنها :**

١- روى مسلم فى صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سميت ابنتى برة ، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت برة ؟! فقال رسول الله ﷺ : « **لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم** » فقالوا : بم نسميها ؟ قال: سموها زينب [21].

---

(١٧) الآية (١٨) من سورة المائدة .

(١٨) الآية (١١١) من سورة البقرة والتفسير للحسن وقتادة

(١٩) وهذا قول مجاهد

(٢٠) هذاقول ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢١) **صحيح** أخرجه مسلم (٢١٤٢) وأبو داود (٤٩٥٣) .

٢- ثبت فى الصحاح عن أبى بكرة قال : مدح رجل عند النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ : ويلك قطعت عنق صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلانًا والله حسيبه ولا أزكى على الله أحدًا ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك (٢٢)

ولهذه التزكية المنهى عنها - للنفس والآخرين - أثرها الماحق على الإيمان بعكس التزكية التى دعانا الله تعالى إليها .

**التزكية منّة من الله :**

إذا كان الاهتداء إلى التوحيد الخالص والإيمان الصحيح نعمة من الله وفتحًا منه وتوفيقًا ﴿ **فمن يُرِدِ اللهُ أن يهديه يشرحْ صدرَه للإسلامِ ومن يُرِد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعدُ فى السماءِ** ﴾ (٢٣) ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً** ﴾ (٢٤)..

فإن تزكية النفس - بعد الإسلام - نعمة من الله تعالى متممة لنعمته - سبحانه - على الإنسان بالإسلام ﴿ **ولولا فضلُ الله عليكمْ ورحمتُه مازكا منكمْ منْ أحدٍ أبداً ، ولكنَّ الله يُزكِّى منْ يشاءُ** ﴾ (٢٥) .

---

(٢٢) - **صحيح** أخرجه البخارى (٨ / ٢٢) ومسلم (٣٠٠٠) وأبو داود (٤٨٠٥) وابن ماجة (٣٧٤٤) من حديث أبى بكرة - رضى الله عنه - مرفوعًا .

(٢٣) الآية (١٢٥) : من سورة الأنعام .

(٢٤) الآية (١٧) : من سورة الكهف .

(٢٥) الآية (٢١) : من سورة النور .

ولا يتوهمنّ أحد أنه بسعيه وكسبه حين يتزكى ويتطهر يوفق ويتقبل منه ، إلا أن تكون له من الله تعالى إعانة وتوفيق ، وليحرص دائما على أن يتلو متأولاً قول الله تعالى : ﴿ **إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** ﴾ (٢٦).

والرسول ﷺ إمام رحمة وتزكية :

كما جعل الله - عز وجل - رسوله محمداً ﷺ هادياً ومرشداً لهذه الأمة إلى طريق التوحيد الخالص لله رب العالمين ، فقد جعل الله منه ﷺ سببا إلى تزكية أنفس أفراد أمته بعد أن هداهم إلى الإيمان .

فرسالته ﷺ بكل ما بلّغه عن ربه من دعوة أمته إلى توحيد ربها ، وتلاوة آيات الله عليهم ، وتعليمهم الكتاب والحكمة ، إنما كانت في ذلك كله تزكية لهذه الأمة وتطهيراً لها ، بهذا امتن الله تعالى على هذه الأمة ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ (٢٧) .

وهكذا كانت رؤية إبراهيم - عليه السلام - لطبيعة رسالة النبي محمد ﷺ حين دعا ربه بهذه الدعوة التي قال عنها النبي ﷺ « أنا دعوة أبي

---

(٢٦) الآيات ( ٥٧ - ٦١ ) : من سورة المؤمنون .

(٢٧)- الآية ( ٥١ ) : من سورة البقرة .

إبراهيم» : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٨).

ولأن هذه هي طبيعة الرسالة المحمدية الكريمة ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل من الوحى الكريم بيانًا للرسول ﷺ فى كيفية مساعدة أمته على التزكى ...

فعندما تخلف قوم عن رسول الله ﷺ عندما دعاهم للجهاد فى غزوة تبوك ، فخلطوا بذلك عملاً سيئًا ( بتخلفهم عن الجهاد ) بعمل صالح قدموه من قبل ( من سبق إسلام وجهاد ) ، ثم اعترفوا وأقروا بذنوبهم فيما بينهم وبين ربهم ، وشاء الله أن يشملهم برحمته فيغفر لهم ، كان الإرشاد بالوحى الإلهى إلي النبى ﷺ إلي طريق التطهير والتزكية ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٩) .

وفى الآيات منهج التطهر والتزكية :

---

(٢٨) الآية ( ١٢٩ ) : من سورة البقرة .

( ٢٩ ) – الآيات ( ١٠٢ – ١٠٤ ) : من سورة التوبة .

فهو من أصحاب الذنوب : إقرار بالذنوب ، وتوبة إلى الله صادقة ، وقربى خالصة ببذل الأموال وهو من رسول الله ﷺ قبول للصدقة ، ودعاء للمتصدقين .

أخذ رسول الله ﷺ المال .. وصلى على الذين أعطوا الصدقات ، وصلاته ﷺ دعاء لهم واستغفار . روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان النبى ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم ، فأتاه أبى بصدقته ، فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » (٣٠) وفى حديث آخر أن امرأة قالت : يا رسول الله ! صلِّ عليّ وعلى زوجى . فقال : صلى الله عليك وعلى زوجك » (٣١)

أما من الله تعالى :

فقبول للتوبة عن العباد ، وغفران للذنوب ، وتطهير للقوم منها : روى البخارى عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : « **أتانى الليلة آتيان فابتعثانى ، فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء ، فقالا لهم** » :

اذهبوا فقعوا فى هذا النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا فى أحسن صورة . قالا لى : هذه جنة عدن وهذا

---

(٣٠) – **صحيح** أخرجه البخارى ( ٧ / ٤٤٨ ) فتح ) ومسلم ( ١٠٧٨ ) والنسائي ( ٢٤٥٩ ) وابن ماجة ( ١٧٩٦ ) وأحمد ( ٤ / ٣٥٣ ) من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

( ٣١ ) – لعلها امرأة جابر رضى الله عنه .

منزلك ، قالا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم » (٣٢) .

وقبول الصدقات .. وتربيتها لأصحابها وتنميتها لهم كما جاء في الحديث الصحيح « إن الله يقبل الصدقة ، ويأخذها بيمينه ، ويربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد » .

**والتزكية – بعد ذلك مسؤولية شخصية :**

إنه إن كانت الهداية إلى الإيمان ، وكان التوفيق إلى التزكية منّة من الله تعالى على من شاء من عباده ، ورحمة منه وفضلاً...

وإن كانت سنة رسول الله ﷺ وهدية هو طريق الأمة العملي إلى الترقي والتزكية ..

فإنه يبقى صحيحًا وثابتًا أيضًا – أن رحمة الله تعالى وتوفيقه إنما يكونان قسمة لمن استشرفت نفوسهم إلى التزكي بعد أن هدوا إلى الإيمان ، ولمن أبت أرواحهم إلا التطهر والترقي بعد أن وفقهم الله تعالى وأعانهم .

يقول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٣) .

---

( ٣٢ ) – **صحيح** أخرجه البخاري ( ٨ / ٣٤١ / فتح ) ومسلم ( ٢٢٧٥ ) والترمذي (٢٢٩٤) من حديث سمرة بن جندب – رضي الله عنه – مرفوعًا ورواية مسلم والترمذي مختصرة .

(٣٣) الآية (٦٩) من سورة العنكبوت .

وقد جعل الله تعالى التزكية عماد فلاح النفس بعد أن منّ الله على العباد بالخلق والتقدير ، وألهمهم طريق الفلاح ، وبين لهم طريق الشر والهلاك ، ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ (٣٤) .

وقد أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله ، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ، وقد خاب من أخملها حتى ركبته المعاصى ، وترك طاعة الله عز وجل .

روى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر ، اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » (٣٥) قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمنا هن ونحن نعلمكموهن .

إن سعى الإنسان لنفسه ، وكسبه وعمله لن يورثه إلا إحدى اثنتين : تزكية نفسه أو تدسيتها ، وبمعنى آخر فلاحها أو خيبتها وهو فى كل ذلك فى قدر الله تعالى يتقلب .

(٣٤) – الآيات ( ٧ – ١٠ ) : من سورة الشمس .

( ٣٥ ) – **صحيح** أخرجه مسلم ( ٢٧٢٢) والنسائى ( ٨ / ٢٦٠ ) وأحمد ( ٤ / ٣٠١ ) .

## على طريق التزكية :

لم تتركنا آيات الله تعالى من غير بيان لسبل التزكية ، فقد قرنت الدعوة إلى التزكية بسبل تحقيقها فى كثير من الآيات ، كما لم تترك أسباب التدسية والخيبة من غير بيان :

١ - ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ (٣٦) .

يرفع من قدر النفس ويزكيها أن تذكر ربها ، وأن تقيم الصلاة تعبيراً عن هذا الذكر أو من أجله ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ (٣٧) .

(٣٦) الآيات ( ١٤ - ١٧ ) : من سورة الأعلى .

(٣٧) - آية ( ١٤ ) : من سورة طه .

ويعوق التزكية ويحول بين الإنسان وبلوغ أثرها أن يؤثر الدنيا على الآخرة ، فيحب دنياه حبًا يضر بآخرته .

- ﴿ إنهُ مَنْ يأتِ ربَّه مجرماً فإنَّ لَهُ جهنَّمَ لا يموتُ فيهاَ ولاَ يَحيىَ ومن يأتِه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهمُ الدرجاتُ العلىَ . جناتُ عدْنٍ تجري مِنْ تحتهاَ الأنهارُ خالدينَ فيهاَ وذلكَ جزاءُ مَنْ تزكّى ﴾ (٣٨).

عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم ، فتميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحمًا ، وأذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل ، فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية (٣٩) .

ذلك كان جزاء أصحاب الذنوب ، ثم مآلهم .

أما من لقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدقه ضميره بقوله وعمله ، فأولئك لهم الجنة ذات الدرجات العاليات .

---

(٣٨) الآيات ( ٧٤ - ٧٦) : من سورة طه .

(٣٩) **صحيح** ، رواه مسلم ( ١ / ١٧٢ / عبد الباقى ) وأحمد ( ٣ / ٥ ) وابن ماجة ( ٩ / ٤٣ ) من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - مرفوعا .

وضبائر : جمع ضبارة ، وهى الحزمة . وحميل السيل : ما يحمله السيل من الغثاء .

عن النبى ﷺ : « **الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس** » (٤٠) وفى الصحيحين : « إن أهل علّيين ليَرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء لتفاضل ما بينهم » قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » (٤١) .

إن هذا الجزاء الرفيع هو لأهل التزكية ، لمن طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك ، وعبد الله وحده لا شريك له ، واتبع المرسلين فيما جاءوا به .

٣- ﴿ وسَيُجَنّبُهَا الأتقَى . الذِى يُؤْتِى مَالَهَ يَتَزكّى ﴾ (٤٢).

أى وسيزحزح عن النار التقى النقى ، الذى ينفق ماله فى طاعة ربه ليزكى نفسه .

---

(٤٠)- **صحيح** ، أخرجه أحمد ( ٥ / ٣١٦ ، ٣٢١ ) والترمذى ( ٢٥٣٠ ) والحاكم ( ١ / ٨٠ ) من طريق همام بن يحيى عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبادة بن الصامت مرفوعاً . قال الحاكم إسناده صحيح ، وأقره الذهبي .

( ٤١ ) صحيح ، أخرجه البخارى ( ٦ / ٣٢٠ / فتح ) ومسلم ( ٢٨٣١ ) .

(٤٢) الآيتان ( ١٧ ، ١٨ ) : من سورة الليل .

٤ - ﴿ يـا أيـهـا الـذيـن آمـنوا لا تـدخلوا بـيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيـها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قـيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾ (٤٣) .

قال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمرى كله هذه الآية فما أدركتها ، أن أستأذن على بعض إخوانى فيقول لى : ارجع فأرجع وأنا مغتبط .

٥ - ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصـارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ فغض البصر تزكية وتطهير ، قال جابر بن عبد الله : « سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى » (٤٥) .

وحفظ الفرج تزكية بحفظه من الزنا ، أو حفظه من النظر إليه ، فقد جاء فى الحديث « احفظ عورتك إلامن زوجتك أو ما ملكت يمينك » (٤٦) .

---

(٤٣) الآيتان (٢٧-٢٨) من سورة النور .

(٤٤) الآية (٣٠) من سورة النور .

(٤٥) **صحيح** أخرجه مسلم (٢١٥٩) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذى (٢٧٧٦) والنسائى فى الكبرى (٩٢٢٣) عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه .

(٤٦) إسناده حسن : أخرجه أبو داود (٤٠١٧) الترمذى (٢٧٩٢٤) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

تبقى عملية التزكية هذه هى الأساس الواحد لتميز النفس الإنسانية، والشارة الواحدة على طهارتها وسعيها إلي الترقى الإيمانى :

إن موسى – عليه السلام – عندما لم يستطع صبراً ، فاعترض على قتل العبد الصالح للغلام إنما كان اعتراضه من أجل هذه التزكية التى ظنها في نفس الغلام قال ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟!﴾ (٤٧) . فالاعتراض كان على قتل نفس صغيرة لم تعمل الحنث ، ولم تكتسب إثما بعد ، فيما رأى موسى عليه السلام .

كذلك فإن أهل الكهف الفارين بدينهم من وجه الجور ومحاولة حملهم على الكفر ، الحريصين على التطهر والتزكية فى كل شىء عندما ابتعثوا واحداً منهم يطلب لهم الطعام قالوا ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ (٤٨).

– ثم إن البشارة لما جاءت مريم بالمسيح عليه السلام حملت معها شارة الاكتمال فى البشرية ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾(٤٩).

---

(٤٧) الآية (٧٤) من سورة الكهف .

(٤٨) الآية (١٩) من سورة الكهف .

(٤٩) الآية (١٩) : من سورة مريم .

هكذا يبدو واضحًا أن عملية التزكية إنما هى محور الكسب الصالح للإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، وأنها لأهميتها وخطورتها قد تعددت وسائل تحقيقها حتى ليكاد المنهج الإسلامى كله من عقائد وعبادات ومعاملات أن يكون منهجًا من أجل تزكية النفس المؤمنة لتكتسب بها الدرجات العلى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (طه /٧٦) .

* * *

## ثانيا : منهج التزكية

آن لنا أن نبدأ حديثًا عن منهج مفصل للتزكية والترقى بالنفس المسلمة..

وترقى النفس المسلمة وتزكيتها لا يقعان طفرة ، وإنما هو سلم يظل الإنسان يرقى فيه ويتدرج بمقدار ما يجاهد نفسه وشيطانه ، وبمقدار ما يكون فى كل أحواله على مراقبة دائمة لله رب العالمين ، وخوف مقام .

ولكى يتضح مقدار التدرج فى التزكية لنا أن نقرأ هذه الآية الكريمة **﴿إنّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصادقينَ والصادقاتِ والصابرينَ والصابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصدقينَ والمتصدقاتِ والصائمينَ والصائماتِ والحافظينَ فروجَهم والحافظاتِ والذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكراتِ أعدَّ اللهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾** [٥٠] .

ولنتأمل سبب نزول هذه الآية ، فإن فيه ملمحًا وضيئًا على حرص النساء المسلمات على أن يذكرن فى القرآن .

عن أم سلمة رضى الله عنها - أنها قالت للنبى ﷺ : مالى أسمع الرجال يذكرون فى القرآن ، والنساء لايذكرن ؟ فأنزل الله تعالى : **﴿إنّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ﴾**[٥١].

---

(٥٠) الآية (٣٥) من سورة الأحزاب .

(٥١) **صحيح** ، أخرجه النسائى فى الكبرى (١١٤٠٤-١١٤٠٥) وأحمد (٣٠٥/٦) ، وابن جرير (٩/٢٢) من طرق عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة رضى الله عنه عن أم سلمة رضى الله عنه ، فذكره .

اطمأنت نفوس نساء المؤمنين بذكرهن فى القرآن ، ووجدن فى ذلك رحمة من الله ونعمة .

فلنتأمل فى تدرج ذكر الصفات لرجال ونساء المجتمع المسلم فى آية سورة الأحزاب السابقة ، بم بدأت ؟ وبم انتهت ؟

فقوله تعالى: ﴿ **إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ** ﴾.

دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه(*) لقوله تعالى : ﴿**قَالَتِ الأعرابُ آمنَّا قُل لَّمْ تؤمِنُوا ولكن قولُوا أسلَمْنَا ولما يَدْخُلِ الإيمانُ فى قُلُوبِكُمْ**﴾ (٥٢) وما جاء فى الصحيحين من قوله ﷺ « **لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن** » (٥٣) ، فالزنا يسلبه الإيمان ، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين .

وإذن : **فإسلام ثم إيمان** هو أخص منه .

ومن بعد قنوت هو الطاعة لله فى سكون ﴿**أمَّنْ هُوَ قانتٌ آناءَ اللَّيلِ ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرةَ ويرجُو رحمةَ ربِّهِ**﴾ (٥٤) وهذا القنوت ناشئ عن الإسلام فالإيمان .

---

* وبخاصة إذا ذكرا متجاورين فى موضع واحد . المؤلف .

(٥٢) الآية (١٤) : من سورة الحجرات .

(٥٣) **صحيح** ، أخرجه البخارى (١٧٨/٣، ١٣٦/٧) ، ومسلم (١٠٠) وأبو داود (٤٦٨٩) والترمذى (٢٦٢٥) والنسائى (٨/٦٤-٦٥) وابن ماجه (٣٩٣٦) وأحمد(٣٧٦/٢) من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – مرفوعًا .

(٥٤) الآية (٩) من سورة الزمر .

**ثم صدق** : فى القول علامة على الإيمان ، كما أن الكذب علامة على النفاق «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا** » (٥٥) .

**فصبر** : وهو سمة الثابتين على الإيمان ، ناشئ عن علمهم بأنه ما قدر لابد أن يكون ، وأروعه ما كان عند الصدمة الأولى حال وقوع المصائب ، ويليه صدق السجية وهو الانطلاق على الصبر فى القول والفعل .

**فخشوع** : يظهر على المسلم سكوتًا وطمأنينة وتؤدة ووقارًا ، وتواضعًا يحمل صاحبه عليه أنه على خوف ومراقبة لله دائمين « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٥٦) .

**فتصدق** : مظهره الإحسان إلى الضعفاء المحاويج من الناس الذين لا كسب لهم يكفيهم ما يحتاجونه من ضرورات الحياة .

(وعندما يصل المتطهر المتزكى إلى درجة التصدق يكون قد وضع القدم على واحد من مسارى التزكى اللذين نراهما متلازمين فى المنهج المفصل ، ألا وهما : الصدقة والصوم ) .

---

(٥٥) **صحيح** ، أخرجه البخارى (١٠/٥٠٧ فتح ) ومسلم (٢٦٠٧) وأبو داود (٤٩٨٩) والترمذى (١٩٧١) .

(٥٦) **صحيح** ، أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرفوعًا من حديث جبريل الطويل .

فصوم لا يقف فى منهج التزكية عند حدود صوم الفريضة فى رمضان بل يزيد عليه صوم التطوع ، قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل فى قوله تعالى ﴿**والصائمين والصائمات**.﴾.

**فحفظ للفرج** : من أن يرى ممن لا يؤذن له فى رؤيته (٥٧) ومن أن يمس ختانًا لم يحله الله تعالى له .

ولعله من المفيد أن نتذكر هنا :

– أن حفظ الفرج من ثمرات الصوم ، فهو معوان عليه لمن لا يجد المتنفس الحلال (٥٨) .

– لذا ناسب أن يأتى حفظ الفرج بعد الصوم فى الذكر فى القرآن وفى الترتيب فى مدرج التزكى .

**وأخيرًا ذكر كثير** ، وليس ذكرًا عارضًا متقطعًا متباعد الأوقات والأحايين ، ولهذا الذكر مظاهره وآثاره :

---

(٥٧) لقوله ﷺ احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ، سبق تخريجه ، وهو حسن.

(٥٨) لقوله ﷺ « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» – **صحيح** أخرجه البخارى (٣/٧) ومسلم ٢٨٠) وأبو داود(٣٩–٤٠عون ) والنسائى (٦/٥٦–٥٧) والترمذى (٤/١٩٩) تحفة) وابن ماجه (١/٥٦٦–٥٦٧) وأحمد (١/٤٢٤, ٤٢٥) من حديث ابن مسعود – رضى الله عنه مرفوعاً .

روى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات» (٥٩) .

عندئذ يصبح المتزكى المتطهر الذى مر بكل هذا المدرج أهلاً للبشارة العظيمة ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ منه لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة ولم لا تكون السلعة الغالية (الجنة) مستقر المتزكى ودار إقامته وقد أدت به التزكية إلى أن :

١- يحقق بها اثنتين تدخلان الجنة ، كما قال رسول الله ﷺ «اثنتان تدخلان الجنة : من حفظ ما بين لحييه ورجليه دخل الجنة » (٦٠) .

٢- ويحقق ستًا من نفسه قيل إنها تدخل الجنة تتمثل فى صدق الحديث ، والوفاء بالوعد ، وأداء الأمانة ، وحفظ الفروج ، وغض الأبصار، وكف الأيدى .

* * *

قلت إن : التزكية الأولى والتطهر الأساس كان بمنة الله العظمى ونعمته الكبرى على الإنسان بهدايته إلى التوحيد ، وإخراجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، فإذا ما حصل الإنسان هذه النعمة – بتوفيق الله

---

(٥٩) إسناده حسن أخرجه أبو داود(١٣٠٩) ، والنسائى فى الكبرى (١٣١٠) وابن ماجه (١٣٣٥) .

(٦٠) رواه الخرائطى (٤٥٨) فى مكام الأخلاق عن عائشة – رضى الله تعالى عنها – وإسناده حسن.

وهدايته له – حصل أصل الإيمان وركيزته ، وتوجب عليه أن ينطلق بانيًا على هذا الأصل صرح إيمانه الشامخ الذى يستظل فى فيئه برحمة الله .

والمؤمن فى انطلاقه إلى البناء فوق أصل إيمانه لابد أن يمر من خلال مدرج التزكية الذى ذكرت ملامحه فيما سبق .

لكنه لا يستقيم للإنسان غالبًا أن يمضى فى بنائه دون أن يعوق الشيطان سعيه ، فيهدم مما بناه ركناً ، أو يلوث مما زكاه من بناء إيمانه جانباً .

وهذا يقتضى – كما سبق أن ذكرت – أن يكون الإنسان فى تزكية دائمة دائبة يبنى بها على أصل إيمانه جديداً ، أو يجبر فى هذا البناء ما حاول الشيطان – أو نجح –فى أن يهدمه .

إن الإنسان فى ضربه فى الدنيا لا ينفك يواقع شيئًا من كبير الذنوب أو من اللمم ، وهو بحاجة – وهو الحريص على التزكى والتزكية – إلى السعى إلى تكفير هذه الذنوب ليبقى مدرج تزكيته ناصعًا وسالمًا وسعى الإنسان هذا إلى تكفير الذنوب هو ما اختار له الشرع اسم الكفارة .

واستقراء المنهج فى الكفارات التى ذكرت فى القرآن الكريم ، وبينتها السنة المطهرة يبرز أن سبيل تزكية النفس وتكفير ما ارتكبته من الخطأ والذنب إنما يتم بعمل تعبدى من عملين .(*)

---

* اقتصرنا فى الحديث على جبر الخطأ والذنب الذى ذكرته آيات الكفارات فى القرآن الكريم ، وإلا فهناك من الأعمال التعبدية ما ليس مجرد إنفاق للمال ولا صومًا مثل : الحج والعمرة والتوبة النصوح ، وكثرة الاستغفار ، وصلاة النافلة وغيرها ، وكلها أعمال يمكن بها جبر ما انثلم أو انهدم من صرح التزكية .

أولهما : أن تبذل النفس راضية ما جبلت على حبه ، وزين لها فى الدنيا حتى عرف بأنه شقيق النفس ، ألا وهو المال (**) .

وثانيهما : أن تتطهر بالصوم .

وقد تكون النفس مخيرة فى بعض الأحوال بين أحد الطريقين (إخراج المال أو الصوم ) ، وقد تكون ملزمة بأحدهما أولاً ، فإن لم يتيسر لها لجأت إلى الثانى على تفصيل يظهر فيما يأتى من بيان .

* * *

يتجاوز الإنسان وهو يتقلّب فى الحياة بعض حدود ما شرع الله تعالى له ، فيوقع نفسه – أو غيره – فى الحرج ، أو يوقع على نفسه وعلى غيره الضرر .

وقد اقتضت رحمة الله أن يجعل للعباد من الحرج مخرجًا ، فكانت الكفارات منهجًا أو طرقًا للتزكى ، والعودة بالنفس إلى صفاء إيمانها بعد أن تكدرت بالذنوب .

**كفارة الأيمان :**

احتلت الأيمان والأقسام والحلف فى القرآن الكريم موضعًا هامًا فقد نبه القرآن الكريم على أهمية الوفاء بالوعد ، وبر اليمين ، وحذر من الغدر بالعهد واتخاذ الأيمان دخلاً ، فقال تعالى : ﴿**أوفُوا بعهد الله إذَا عاهدْتُمْ ولا تنقُضوا الأيْمانَ بعدَ توكيدِهَا وقد جعلْتُمُ اللهَ عليكُمْ كفيلاً إنّ**

** تخرجه نقدًا أو طعامًا أو كسوة أو عتق رقاب ..إلخ .

اللهَ يعلمُ ما تفعلونَ . ولا تكونوا كالتي نقضتْ غزلَها من بعدِ قوةٍ أنكاثاً تتخذونَ أيمانكم دخلاً بينكم أن تكونَ أمةٌ هي أربى من أمةٍ ، إنما يبلوكمُ اللهُ به ، ليبيننّ لكم يومَ القيامةِ ما كنتم فيه تختلفون ﴾(٦١) .

لكن الذى(يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ) يعلم أن فى ألسنة الخلائق تعلقًا بالأقسام والأيمان ، فكانوا فى حداثة عهدهم بالإسلام يقعون – عن غير قصد – فى بعض ما كانت العرب تحلف به فى الجاهلية ، تجرى به ألسنتهم من غير تعقيد ، فدعوا إلى ترك ذلك ، والتلفظ بكلمة الإخلاص بديلاً لذلك ، ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « **من حلف فقال فى حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله** » (٦١) .

وقد يقُسم الإنسان وهو يلغو ، وقد يقسم عن عمد وقصد وعقد يمين، وللغوه باليمين صور :

عن عروة عن عائشة فى قوله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ قالت : « هم القوم يتدارءون فى الأمر ، فيقول هذا لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله ، يتدارءون فى الأمر ، لا تنعقد عليه قلوبهم » (٦٢).

* الدخل : المكر والخديعة . (٦٠) الآيتان (٩١، ٩٢) : من سورة النحل .

(٦١) صحيح ، أخرجه البخارى (١١/٣٦/فتح) ومسلم (١٢٦٧/عبد الباقى ) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه – مرفوعاً .

(٦٢) إسناده صحيح : أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (١٥٩٥٢) من حديث عائشة – رضى الله عنها – موقوفاً .

وقد تعددت الأحكام فى اليمين اللغو :

فقيل : إنـه قول الرجل فى الكلام من غير قـصد : لا والله ، وبلى الله (وهذا مذهب الشافعى ) .

وقيل : هو فى الهزل    وقيل : هو فى المعصية .

وقيل : على غلبة الظن (وهو قول أبى حنيفة وأحمد ) .

وقيل : اليمين فى الغضب ، وقيل فى النسيان .

وقـيل : هو الحلف على تـرك المأكل والمشـرب والملبس ، ونحـو ذلك واستدلوا بقوله تعالى ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ (٦٣)

ويقول ابن كـثير : والصـحيح أنه اليمين من غـير قصـد ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ .

وليس هذا معـرض عرض الأحكام الفقهـية فى المسائل التى اشـتملت عليهـا الآية الكريمة ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ (٦٤) .

---

(٦٣) الآية (٨٧) من سورة المائدة .

(٦٤) الاية (٨٩) : من سورة المائدة .

إنها فى كفارة اليمين العمد ، اليمين المعقودة أو المعقدة ، وفى الآية الكريمة بيان المقدار الواجب فى الإطعام ، ونوع المطعوم ، وما يجزىء فى كسوة المحتاجين ، وتحرير الرقبة ..ولكل ذلك تفصيل فى كتب التفسير وكتب الفقه .

لكننا مع الآية الكريمة هنا فى أمرين :

– وما جاءت به من الكفارة لليمين المعقدة ، ففتحت بذلك للنفس التى وردت موارد الحرج بابًا للرجوع المطمئن إلى ساحة الرحمة .

– وما جعلته سبيلاً إلى ذلك ممثلاً فى التزكية بأحد أمرين :

(أ) إخراج شقيق النفس (المال) فى صورة إطعام أو كسوة أوعتق .

وفى ذلك تطهير النفس ، ونفع المحاويج .

(ب) تزكية النفس بالصوم وهو ثلاثة أيام تكفى ( فى تقدير من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ) لرد النفس التى ساقتها نزعة غضب أو ميل هوى أو اتباع شيطان إلى تعقيد يمين ، ثم رأت غيرها خيرًا منها ، فرغبت فى العدول إلى الذى هو التكفير عن يمينها ، ثم لم تستطع التزكى ببذل المال ، فأخذت نفسها بمنهج الصوم فى التزكية لعلها كلما تسحرت أو بيتت نية الصوم ، وكلما أفطرت تذكرت أنها خالفت ، وعدلت عن الذى هو خير إلى الذى هو أدنى ، وهى لذلك تتطهر ، فتكون بذلك أشد استمساكًا بدين ربها السمح الميسر .

إن النفس التى أقسمت يمينها عاقدة عامدة أن تحرم على نفسها

حلالاً، أو أن تقطع صلة أمر الله بحفظها كرحم أو أخوة فى الدين – هذه النفس اعتدت وتجاوزت حين حرمت حلالاً ، وعدوانها هو على نفسها أوضح منه على غيرها .

لكن النفس قد تعتدى وتتجاوز فيصيب عدوانها غيرها ، وهى حين تفعل ذلك تكون بحاجة إلى التزكية لتعود طاهرة من أدران المعصية بالعدوان والمخالفة ، ومثال هذا العدوان الذى تحتاج معه النفس إلى التزكية :

قتل الصيد فى الإحرام :

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ من الصيدِ تَنالُه أيديكُم ورِمَاحُكم ليَعْلَمَ اللهُ مَنْ يخافُه بالغيبِ ، فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أليمٌ – يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وأنتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَه منكُم متعمِّداً فجزاءٌ مثلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ به ذَوا عدلٍ منكُم هدياً بالغَ الكَعْبَةِ ، أو كَفَّارَةٌ طَعامُ مَسَاكينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صياماً ليذُوقَ وبالَ أمرِهِ ، عفَا اللهُ عمَّا سَلَفَ ومنْ عادَ فينتقمُ اللهُ منْهُ ، واللهُ عزيزٌ ذُو انتقامٍ ﴾ [٦٥] .

والمستفاد من الآيتين – بعيداً عن تفصيل القول فى المحكوم به مثلاً حيًا من الأنعام أو قيمة مماثلة ، إذ محل ذلك كتب التفسير والفقه – إنما هو:

– أن ابتلاء من الله سيقع بالقوم وهم محرمون يتمثل فى أن يكثر صيد ويغشى مواقعهم ، فتصير صغاره فى متناول الأيدى ، وكباره فى متناول الرماح ، ثم يمنعون مع ذلك من صيده .

(٦٥) الآيتان (٩٤، ٩٥) : من سورة المائدة .

–وأن الغاية من الابتلاء هى إظهار ما علمه الله من شأن عباده وليس لعلم مالا يعلمه منه ، وأن آية خوف العبد من خالقه أن يمتنع عن الصيد مع تمكنه من أخذه بأيسر الجهد .

– وأن المخالفة عن ذلك النهى بالقيام بالصيد إنما هى عدوان بالغ الجسامة توعّد الله فاعله بالعذاب الأليم عند العودة إليه ، أو عند إتيانه فى هذا الإحرام الذى نزلت فيه الآية (*) .

– أن قتل الصيد متى وقع عمداً(**) من فاعله وجبت بوقوعه كفارة بينتها الآية ، فجعلت الجزاء :

(أ) مثل ما قتل من النعم يحكم به رجلان (عدلان) من المسلمين ، هدياً بالغ الكعبة .

(ب) أو كفارة – عندما لا يجد ما حكم به عليه ، أو انعدام وجود مثل الصيد المقتول– تتمثل فى إطعام عدد من المساكين بمقدار قيمة الصيد المقتول.

---

(٦٥) الآيتان (٩٤،٩٥) : من سورة المائدة .

(*) نزلت لما ابتلاهم الله بالصيد عام الحديبية وهم محرمون ، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم فى رحالهم فيتمكنون من صيده أخذاً بأيديهم ، وطعناً برماحهم .

وقيل روى أنه عَنّ لهم فى عمرة الحديبية حمار وحش ، فحمل عليه أبو اليسر فقتله ، فقيل له : إنك قتلت الصيد وأنت محرم ، فنزلت .

(**) محظورات الإحرام : يستوى فيها العمد والخطأ ، وإنما اشترط العمد فى الآية لأن مورد الآية تعمد ، ولأن الأصل فعل المتعمد والخطأ ملحق به للتغليظ ، وعن الزهرى : نزل الكتاب بالعمد ، ونزلت السنة بالخطأ .

(جـ) أو كفارة تتمثل فى صيام عدد من الأيام يقابل عدد من كان يتوجب على قاتل الصيد أن يطعمهم من المساكين .

والحكمة من تقديم المثل هديًا بالغ الكعبة ، وكذلك من إطعام المساكين واضحة الدلالة على أن منهج تزكية النفس التى أثمت بقتل الصيد هو بإخراجها شقيقها وهو المال ، إلى جوار تحقيق النفع للمحاويج من المسلمين .

فإذا ما عجزت النفس عن التزكى والتطهر بإخراج شقيقها – ولابدلها من تزكية وتطهر بما أثمت به من المخالفة – كان البديل الوحيد لتحقيق هذه التزكية هو الصوم ، فصيام عدة الأيام المماثلة لقيمة الصيد المقتول فى الإحرام هو الوسيلة الإلهية لتزكية النفس المعتدية بخروجها عن نطاق الطاعة ، واعتدائها على حرمة ما أمر الله بالامتناع عن قتله من الصيد ، فلعل فاعل ذلك أن يتذكر كلما هم بسحور أو جلس إلى إفطار أو عانى شدة الجوع والظمأ فى نهار الصوم أن يتذكر خطيئته بمخالفته أمر ربه ، وأن يستشعرأنه أجرم بما يستوجب عقابه ﴿**ليذوق وبال أمره**﴾(*) ولتعود نفسه بعد الصيام مزكاة مطهرة من ظلمة الخطأ ومخالفة المنهج .

* * *

---

* الويل : المكروه والضرر الذى ينال فى العاقبة من عمل سوء ، وذلك لثقله على من يقع عليه ، وهو مأخوذ من قوله تعالى ﴿ **فأخذناه أخذا وبيلا** ﴾ أى ثقيلا شديداً ، والوبيل من الطعام هو الثقيل على المعدة فلا يستمرأ .

لقد كان عدوان النفس بتعقيد اليمين منصبا على مرتكب المخالفة أكثر من انصبابه على غيره ، وعدوانها فى صورة قتل الصيد فى وقت الإحرام هو انتقال بالعدوان إلى مخلوق آخر ، فالعدوان فيه واقع على محل صالح مباح إلا فى الإحرام ، فكانت الكفارة تزكية للنفس بالمقدار الذى بينته سورة المائدة كافية فى علم الله ورحمتة - لتطهيرها من إثم ما وقعت فيه بالمخالفة .

لكن العدوان قد يمتد فيطال نفساً بشرية لها حرمتها ، منع الله إيذاءها، وأمر بالإحسان إليها ، وجعلت السنة الشريفة من إكرامها مظهراً للخيرية فى النفس (*) وذلك عندما يظاهر الرجل من امرأته .

إن العدوان هنا يمثل ﴿منكراً من القول وزوراً﴾ ، ولذا وجب أن تكون التزكية والتطهير مماثلين لدرجة العدوان :

فالموقع للظهار متجاوز مخالف لما شرعه الله فى شأن الأزواج ، ﴿..وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم ، بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(٦٦) .

إنه الاعتداء ، والافتراء ، والقول بغير الحق .

---

(*) إشارة إلى قوله - ﷺ - « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » ، أخرجه الترمذى ( ٣٨٩٥ ) وأبو نعيم فى الحلية ( ٧ / ٤٦٨ ) من طريق حمد بن يوسف : نا سفيان عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا ، وهو صحيح .

(٦٦) الآية (٤) : الأحزاب .

﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ (٦٧).

إن اللافت للنظر فى الآيات هنا عدة أمور .

– أن التطهير والتزكية بدأت بالإنفاق متمثلاً فى الخروج عن بعض المال المملوك ممثلاً فى تحرير رقبة .

– ثم جعُل البديل عند انعدام القدرة على تحرير الرقبة : الصوم .

أ – وقد قدمته الآية على الإطعام ، وكانت فى الكفارات السابقة تجعله بعده ، أو تخير بينهما .

(ب) وجعلت مدة الصوم شهرين متتابعين قبل المس .

والحكمة إلهية (ممن يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) امتدت فترة الصوم شهرين متتابعين بلا انقطاع .. إن النفس التى ظاهرت أثمت ، فاحتاجت إلى التطهر والتزكية ، وهى كلما صامت يومًا عانت خلاله الجوع والظمأ ، وجمعت إليهما الحرمان من الزوج (التى كانت حلالاً مباحًا قبل الظهار) ليل الشهرين ونهارهما – كلما فعلت ذلك تذكرت أنها

---

(٦٧) الآيات : (٢–٤) من سورة المجادلة .

جلبت على نفسها إثمًا استحقت معه التطهير والتزكية عقابًا فى صورة شهرين متتابعين ( ضعف فريضة الصوم على الأمة مع أربعة أضعاف الحرمان من الزوجة )..ويبقى الصوم الوسيلة الربانية للتطهر والتزكية .

* * *

تبلغ النفس أحيانًا فى عدوانها ، ومخالفتها شرع ربها فوق ما كان من عدوانها فى حالة الظهار ، فقد كان الظهار عدوانًا أدبيًّا وإيذاءً نفسيًّا يقعان على الزوجة ، لايبلغان حد الإيذاء الجسدى بالجرح أو القتل .

لكن العدوان يبلغ غايته – من النفس المؤمنة – بقتل النفس عمدًا أو خطأ .

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ، ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾[٦٨] .

لقد بلغ العدوان فى القتل الخطأ مدى واسعاً وخطيرًا :

أ – إنه يؤدى إلى أن تنقص الصفوف المسلمة واحدًا من أفرادها وإذا كان كل فرد منا على ثغرة من ثغور الإسلام يحذر أن يؤتى الإسلام من قبله ، فإن النفس القتيل قد تركت بقتلها ثغرة يمكن أن يؤتى الإسلام من خلالها .

(٦٨) الآية (٩٢) : من سورة النساء .

ب – وقد يكون القتل الخطأ لواحد من قوم معاهدين ، فيؤدى هذا إلى إثارة أضرار وأخطار على الإسلام وأهله ، فقد يعطى هذا القتل القوم المعاهدين انطباعًا بأن المسلمين لا يحفظون عهودهم بدليل أن أحدهم قا قتل معاهدًا ، وقد يخرج هذا الظن القوم المعاهدين من المسالمة والموادعة إلى إثارة الحرب على الإسلام وأهله ، أو مناصرة أعداء الدين على المسلمين .

وبقدر جسامة العدوان وكبر حجم المخالفة تكون ضريبة التطهير والتزكية :

أ – إنها فى حالة قتل المؤمن ﴿مِن قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ تحرير رقبة مؤمنة اشترط الإيمان فيها ، ولم يشترط فى الرقاب المحررة فيما سبق الحديث عنه من كفارات (*)

ب – وهى الدِّيَةُ المسلّمة إلى أهل من قتل خطأ ، تعويضًا عما كان يسعى به على أهل أو ولد ، ولإزالة الشحناء من النفوس ، فضلاً عما فيه من مضاعفة غرم التزكية والتطهير على القاتل إلاّ أن يعفو أهل القتيل فيتركوا الدية .

---

(*) لعل ذلك لأغراض :

١ – منها تعويض النفوس المسلمة التى فقدت مسلمًا بالقتل بنفس مسلمة تتولى بعد عتقها – حراسة الثغرة التى كان القتيل عليها .

٢ – كما أن فى عتق النفس المؤمنة إحياء لها ، فيكون هذا الإحياء المعنوى بالعتق فى مقابل الإماتة للمقتول خطأ .

جـ : وهى التحرير لرقبة مؤمنة فقط- إذا كان القتيل من قوم عدو للمسلمين - لتعويض النقص فى الصفوف المسلمة ، ولم تشرع الدية لأنها مال ينتقل من حوزة المسلمين إلى حوزة الكفار فيتقّوْن به على المسلمين ، ثم إنه لا دية تدفع لهم لأن القتيل كان قد انتقل بإيمانه - قبل أن يقتل - من صفوفهم مطلقًا ، وإن كان منهم بصلة الدم ، فإن قرابة الإسلام تعلو كل قرابة ورحم الإسلام فوق كل رحم .

د - وهى الدية مقدمة * على تحرير الرقبة المؤمنة متى كان القتيل من قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق .

هـ - ثم هى (عند عدم القدرة على تحرير الرقبة ودفع الدية ) صيام شهرين متتابعين اسجلابا لما تفضل الله تعالى به على فاعل ذلك من فتح باب التوبة ، وتمكين النفس الراغبة فى التطهر من العودة إلى رحاب الالتزام بحدود الأمر والنهى الإلهى .

إن النفس البشرية بحاجة فى كل لحظة من عمرها إلى التطهر والتزكية فإنها إن خلت من إثم أو خطيئة مهما قلت - ولا استصغار لذنب- فإنها لا تخلو من غفلة عن ذكر ، أو عدم إعراض عن لهو .

وإنها لتقع فى الإثم والخطأ ، فـ«كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » فتحتاج إلى الاغتسال من حوبتها ، لتعود نظيفة طاهرة مزكاة إلى

* لعل سبب تقديمها هنا : أن دفع أى توهم ، واستبعاد أى ظن من نفوس وخواطر القوم المعاهدين الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق هو الأولى فى هذا الموقف مع الحرص على زيادة الصفوف المسلمة برقبة محررة كما فى الذى سبق .

ساحة طاعتها وتعبدها لربها .

ثم إنه منهج التزكية الرئيس فى شريعة الإسلام للخروج من حمأة الخطأ والإثم .

– أن تدفع النفس شقيقها ( المال) طيبة به على اختلاف مقاديره وصور إخراجه المبينة فى آيات الكفارات .

– أو أن تتطهر بالصوم – على اختلاف طول مدته وعدد أيامه ، فتذكر مع بداية كل يوم صيام ونهايته ما أجرمت وأخطأت بفعله ، فتجدد توبة ، وتحدث نية على الإقلاع الفورى عن الذنوب وعدم العودة إليها .

قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى .

* * *

## ثالثا: العوائق

### مدخل:

معرفة الإنسان الشر طبيعة وآثاراً - تجعله يحاذ ر من الوقوع فيه ، فإن سقط فيه من غفلة أو شهوة وضعف إيمان ، أدرك خطر ما هو واقع فيه ، فسارع بمحاولة إنجاء نفسه من براثن الشر ، وسعى إلى الخلاص من آثاره .

ويرى بعض المحققين اتباع منهج التعريف بما هو خطأ وفاسد فى تعليم الناس بمقدار ما يتسع التعليم له ..فيرون تعريف المتعلم بكل الباطل فى الباب الذى يتعلمه ، فإن هو عرفه عن يقين قيل له : كل ما عدا هذا الباطل فى الباب الذى تتعلمه صحيح ، وممن يقال إنه فعل ذلك الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - إذ يقال إنه عرف ابنه الأحاديث الضعيفة والموضوعة كلها أولاً ، ثم قال له ما عدا ذلك من حديث رسول الله ﷺ فهو صحيح .

إن المعرفة بالشر والخطرَ الناجم عنه تضمن النجاة .

ذكر أن صحابيّاً(*) سأل صحابيّاً آخر (**) - رضوان الله على الجميع - عن معنى التقوى ، فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت ، قال : فذلك التقوى .

لابد من معرفة بالشر - معرفة عقلية ذهنية لا مواقعة ولا ممارسة - ليكون تشميرٌ ، ويكون حذرٌ .

---

(*) هو عمر رضى الله عنه.

(**) هو أبى بن كعب رضى الله عنه .

من هنا كان فقه حذيفة بن اليمان – رضى الله تعالى عنه – حين كان الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – يسألون النبي ﷺ عن الخير ، وكان هو يسأله عن الشر مخافة أن يقع فيه .

وقد فطر الله النفس البشرية على أن تكون متعبدة ، وغاية خلق الله للجن والإنس أن يعبدوه .

لكن ما الذى تعبده النفوس المفطورة على التعبد والخضوع لمعبود ؟ ذلك أمر يتفاضل (يتمايز) فيه الناس بين مؤمن وكافر ﴿**هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ (٦٩) .

والنفس فى خضوعها لحتمية أن تكون متعبدة – هذه النفس تكون واقعة فى عبادة من اثنتين :

عبادة صحيحة تعبد بها ربها وتوحده .

أو عبادة باطلة تعبد بها هواها ، أو شيطانها ، أو مخلوقاً مثلها .

والعبادة الصحيحة الحقة ليست مناط حديثى هذا .. وإنما ينصرف الحديث هنا إلى العبادة الباطلة ، أخذاً بضرورة معرفة الشر لتوقيه ، وحرصاً على عرى الإسلام من أن تنقض .

قالوا فى تفسير قوله تعالى ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا**﴾ (٧٠) أى مهما استحسن من شيء ورآه حسناً فى هوى نفسه كان دينه ومذهبه ، كما قال الله تعالى ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء**﴾ (٧١) .

(٦٩) الآية (٢) : من سورة التغابن . (٧٠) الآية (٤٣) من سورة الفرقان .

(٧١) الآية (٨) من سورة فاطر .

فإذا سقط الإنسان فى مهوى عبادته لهواه ، وإعجابه برأيه فقد ضل وخسر وهلك .

– إنه يكذب بالحق والداعين إليه ، استكباراً عن أن يقبل رأى غيره ، وإن كان رأى هذا الغير صوابا ، وقد يشتط فيقتل من يأتيه بما لا يوافق هواه ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ (٧٢) ، ولقد يظهر صدق الداعى إلى الحق ، ولكن الاستكبار الناجم عن اتباع الهوى يصد عن اتباع الحق .

– ومتى حجبه الهوى عن الإجابة ، أو زين له الانحراف عن الحق.. تنتكس فطرته ، وينقلب صاحبها من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين ، فإذا هو بعد رفيع المقام الآدمى المكرم، مثل الكلب على كل أحيانه ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ (٧٣).

ومع العلم بأن أكثر المفسرين على أن الآية السابقة تعنى بلعام بن باعوراء (وقيل : هو أمية بن أبى الصلت ) .

لكننا نجد فى حديث رسول الله ﷺ ما هو بمعنى هذه الآية ، ويجعل هذا البعض المذكور فى الآية بعضا من أفراد أمته « إن مما أتخوف

(٧٢) الآية (٨٧) من سورة البقرة .

(٧٣) الآيتان (١٧٥,١٧٦) : من سورة الأعراف .

عليكم رجل قرأ القرآن ، حتى إذا رؤيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام، واعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ، ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك ، قال (*) : قلت : يانبى الله ، أيهما أولى بالشرك المرمىّ أو الرامى ؟ قال : بل الرامى » (٧٤) .

لقد أخلد صاحب الهوى إلى الأرض ، واتبع هواه ، فما عدا أن يكون مثل الكلب اللاهث دائمًا ، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

– والحق أن اتباع الهوى ، والإعجاب بالرأى فيه كثير من تزيين الشيطان ، فضلاً عن ضلالة النفس وتسلط الهوى .

واتباع المرء الشيطان ، واتباع الشيطان المرء (بمعنى استحواذه عليه فمهما أمره امتثل له وأطاعه) هذا الاتباع هو نتيجة الانسلاخ عن آيات الله، أى أن الشيطان يصير المعبود البديل للنفس التى ضلت عن عبادة الله .

ولأن الجزاء على عبادة النفس لما كانت تعبد إنما يوفى إليها كاملاً يوم القيامة ، فهذه هى الصورة حين توفية الجزاء :

---

* القائل هو حذيفة بن اليمان رضى الله عنه وهو روای الحديث .

(٧٤) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى (٥٠٩/٣) والطحاوى فى مشكل الآثار (٣٧٠/١) من طريق الصلت بن بهرام : حدثنا الحسن ، حدثنا جندب البجلى فى هذا المسجد أن حذيفة يعنى ابن اليمان – رضى الله عنه – حدثه ، قال : قال رسول الله ﷺ فذكره – قال ابن كثير عقبه: وهذا إسناد جيد .

﴿إنَّ أصحابَ الجنةِ اليومَ فى شُغُلٍ فاكهونَ . هُمْ وأزواجُهُمْ فى ظلالٍ على الأرائكِ متكئونَ . لهمْ فيها فاكهةٌ ولهمْ ما يدَّعون . سلامٌ قولاً منْ ربٍّ رحيمٍ﴾[75] .

هؤلاء هم أصحاب العبادة الحقة.

إذا ارتحلوا من عرصات يوم القيامة فنزلوا فى روضات الجنات بما أحسنوا العبادة ، كانوا فى شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم .

لكن ما هم فيه من النعيم الشاغل المفرح المعجب لم يعطوه إلا بما شمروا له فى الدنيا من صحيح الطاعة ، والعبادة وأعانهم الله عليه .

لكن عرصات القيامة لا يقف بها أهل الجنة وحدهم ، وإنما يضم الموقف أصحاب النار الذين كانوا فى الدنيا على عبادة الهوى أو عبادة المخلوقين أو عبادة الشيطان .

لذا ينادى هؤلاء ﴿وامتازوا اليومَ أيُّها المجرمونَ . ألمْ أعهدْ إليكمْ يابنى آدمَ ألَّا تعبدُوا الشيطانَ إنَّهُ لكُمْ عدوٌّ مبينٌ . وأن اعبدونى هذا صراطٌ مستقيمٌ . ولقدْ أضلَّ منكم جبلاً كثيراً أفلمْ تكونُوا تعقلُونَ﴾[76] .

فإذا تميز أصحاب النار ، أصحاب العبادة الباطلة المجرمون ، عندئذ يناديهم ربهم مقرِّعًا على كفرهم بربهم وطاعتهم للشيطان أن قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتى ، وهذا هو الصراط

---

(٧٥) الآيات (٥٥-٥٨) : من سورة يس .

(٧٦) الآيات (٥٩-٦٢) : من سورة يس .

المستقيم، فسلكتم غير ذلك ، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ، ولقد أضلكم وأضل خلقًا كثيراً ، أفما كانت لكم عقول حين خالفتم أمر ربكم وعبدتم الشيطان ؟! .

﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ (٧٧) .

وكان الجزاء :

﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾(٧٨) .

هي النارُ جزاءً وفاقًا لأصحاب النار ، أصحاب العبادة الباطلة الذين كانوا يعبدون الشيطان بطاعتهم له وعصيانهم لله.

(٧٧) الآية (٨٥) : من سورة النمل .

(٧٨) الآيتان (٦٣، ٦٤) من سورة يس .

لنا أن نتساءل – وصلاً بما سبق من مدخل – كيف وقع هؤلاء في حبائل الشيطان حتى أوردهم النار ، وبئس الورد المورود ؟!

لقد صدهم الهوى والاستكبار عن سماع الحق والرضوخ له .. وأعانوا الشيطان على أنفسهم بانسلاخهم عن آيات الله فكانوا من الغاوين.

وبذلك حقق فيهم الشيطان توعده لهم ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٩) .

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (٨٠).

نصب الشيطان حبائله .

وأخرج آدم وزوجه من الجنة .

ونودي آدم ﴿يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من

---

(٧٩) الآية (٦٢) : من سورة الإسراء .

(٨٠) الآيتان (٢٠ ، ٢١) من سورة سبأ .

**حيث لاترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾** [٨١] .

لكن بنى آدم – إلا من رحم الله – كانوا فى صمم عن النداء الإلهى ، واستماع لإغواء الشيطان .

وهكذا بدأ معهم الشيطان فعله ، وهذه كانت وسائله :

( ١ ) قعود على الصراط المستقيم :

**﴿قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾** [٨٢] هذا هو الشيطان لما أنظره الله إلى يوم يبعثون يقسم * معاندًا متمردًا ، متوعدًا أبناء آدم ، لأقعدن لهم على طريق الحق ، وسبيل النجاة ، ولأضلنهم فلا يعبدونك ولا يوحدونك كما أضللتنى وأغويتنى .

فالشيطان قاعد لابن آدم مترصد له على طريق الحق لإغوائه وإهلاكه، ولن ينجو من قعوده هذا إلا من أطاع الله وعصى الشيطان .

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فتعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟! فعصاه وأسلم قال : وقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول ؟! فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال ، فقال : تقاتل**

(٨١) الآية (٢٧) من سورة الاعراف .

(٨٢) الآية (١٦) من سورة الأعراف .

* الأسلوب فى قوله (لأقعدنّ) أسلوب قسم تدل عليه اللام .

**فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟! قال : فعصاه وجاهد : قال رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقًا على الله أن يدخله الجنة »** (٨٣) .

(٢) والإتيان من كل جهة :

قال الشيطان : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٨٤).

من بين أيديهم : أشككم فى آخرتهم ، فأخبرهم أنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار .

ومن خلفهم : أرغبهم فى دنياهم وأزينها لهم ، وأدعوهم إليها.

وعن أيمانهم : أشبه عليهم أمر دينهم ، وأبطئهم عن الحسنات .

وعن شمائلهم : أشهى لهم المعاصى ، وأزين لهم السيئات وهكذا يأتى الشيطان ابن آدم من كل وجه ، إلا أنه كما قال قتادة : أتاك يا ابن آدم من كل وجه ، غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله .

---

(٨٣) **إسناده صحيح** ، أخرجه أحمد (٤٨٣/٣) والنسائى (٢١/٦) وابن حبان (١٦٠١)) وابن أبى شيبة (٢٩٣/٥) والطبرانى فى الكبير (١١٧/٧، ١١٨) من حديث سبرة بن فاكه – رضى الله عنه –مرفوعًا .

(٨٤) الآية (١٧) : من سورة الأعراف .

(٣) الاستفزاز والإثارة بكل طريقة :

لما قال الشيطان ﴿أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا﴾ قال الله تعالى : ﴿ اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ (٨٥) .

﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ :

قيل : و اللهو والغناء يستخفهم به ، وقيل : كل داع إلى المعصية .

﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ .

احمل عليهم بجنودك ، خيالتهم ورجلتهم ، وتسلط عليهم بكل ما تقدر عليه .

﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد ﴾ .

كل مولود ولدته أنثى عُصى الله فيه : بتسميته بما يكرهه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعلها به فقد دخل فى مشاركة إبليس .

أما الأموال فجمعها من خبيث ، وإنفاقها فى حرام .

«وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» .

---

(٨٥) الآيتان (٦٣، ٦٤) : من سورة الإسراء .

وذلك الوعد الغرور ، والأماني الكاذبة تظهر حقيقتها يوم يقضى بين الناس بالحق ، فيقول الشيطان ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[٨٦] ، فأي تغرير من الشيطان ، وأي حسرة للذين غرتهم الوعود ؟! .

**(٤) الأمر بتغيير خلق الله :**

يقول اله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ، إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ، وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[٨٧] .

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ .

قالت عائشة : أوثاناً .

وقال ابن جرير عن الضحاك : قال المشركون للملائكة : بنات الله ، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى .

---

(٨٦) الآية (٢٢) : من سورة إبراهيم .

(٨٧) الآيات (١١٦ ، ١٢١) : من سورة النساء .

وقال ابن عباس : يعنى موتى .

وقال الحسن : الإناث كل شىء ميت ليس فيه روح ، إما خشبة يابسة، وإما حجر يابس .

﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ .

فهو الذى زين لهم ذلك ، وأمرهم به ، وحسنه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس فى نفس الأمر ، إذ سوف تخبر الملائكة الذين يدعون عبادتهم حين يسألون عن ذلك يوم القيامة بكذبهم ، ويقولون ﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾[٨٨].

لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا» .

هذا توعد الشيطان فى مجادلته ، وجرأته فى مخاطبة الله تعالى : قال قتادة فى النصيب المفروض : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة .

«ولأضلنهم » ..عن الحق فلا يعرفون وجه الصواب فيه .

«ولأمنينهم» ..لأزينن لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأمانى ، وآمرهم بالتسويف والتأخير ، وأغرهم من أنفسهم ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ .

أى شقها ، وجعلها سمة للبحيرة ، والسائبة والوصيلة ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ .

---

(٨٨) الآية ٤١) من سورة سبأ .

بخصى الدواب [٨٩] ..أو بالوشم[٩٠] .

أو بتغيير دين الله [٩١] بتبديل فطرة الله فى النفوس ، قال رسول الله ﷺ كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء﴾[٩٢].

وقال ﷺ « قال الله عز وجل : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»[٩٣].

أو بتغيير الملامح بالوشم [٩٤] أو النمص ، أو التفلج للحسن ، وقد كره الفقهاء ثقب آذان الأولاد ، وأباحه البعض للإناث لحاجتهن إليه فى لبس الحلية .

ولنلاحظ أن الشيطان فى كل مرة يكرر « ولآمرنهم » ويعقب على ذلك بما معناه : فليفعلن ما آمرهم به ، فى لهجة الواثق من سلطانه الذى له عليهم وبه يأمرهم ، وهو فى كل ذلك ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ .

---

(٨٩) عن ابن عباس .

(٩٠) عن الحسن البصرى .

(٩١) ابن عباس فى رواية عنه ، ومجاهد ، والضحاك .

(٩٢) أخرجه البخارى (١٢٥/٢) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعًا وجمعاء : مكتملة الخلقة ، وجدعاء : مقطوعة الأنف .

(٩٣) أخرجه مسلم (٩٨٦٥) عن عياض .اجتالتهم : صرفتهم عن الهدى .

(٩٤) فى صحيح مسلم النهى عن الوشم فى الوجه ، وفى لفظ لعن الله من فعل ذلك .

**(٥) التخويف من الإنفاق فى سبيل الله :**

**﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾** (٩٥).

فالشيطان مخوف كل منفق من نفاد ماله ، ملوح له بالفقر وهو مع نهيه له عن الإنفاق مزين للمعاصى ، آمر بالفحشاء (٩٦) وعمل المحرمات ومخالفة أمر الله .

**(٦) المرءاة فى العمل :**

**﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾** (٩٧).

فإذا كان لابد من إنفاق ، فإن الشيطان يجعل غاية صاحبه المراءاة والسمعة ، فيهلك بذلك ، ويهلك عمله ، ثم يكون أول من تسجر بهم النار .

إن أول من تسجر بهم النار ثلاثة من أهل الرياء (٩٨) منهم صاحب المال الذى يقول : « ما تركت م ن شىء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فى

---

(٩٥) الآية (٢٦٨) : من سورة البقرة .

(٩٦) قيل فى الفحشاء : إنها فى كل آية فى القرآن تعنى الزنا إلا فى هذه الآية ، فهى تعنى البخل، وهذه رواية مقاتل عن الكلبى ، والأصواب صرف معنى الفحشاء إلى كل منكر يأمر به الشيطان .

(٩٧) الآية (٣٨) من سورة النساء .

(٩٨) هم : العالم ، والغازى ، والمنفق الذى يراءون بأعمالهم .

سبيلك ، فيقول الله : كذبت ، إنما أردت أن يقال جواد ، فقد قيل»(٩٩).

وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ سئل عن (عبد الله بن جدعان) ، هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه ؟

فقال : لا ، إنه لم يقل يومًا من الدهر رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين»(١٠٠).

**(٧) الصد عن ذكر الله وعن الصلاة :**

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ (١٠١).

وذلك لأن الشيطان يعلم أن ذكر الله سبب اطمئنان قلوب العباد ، وهو يريدها قلوبًا مضطربة مهوشة لتسهل سيطرته عليها وتحكمه فيها ، فهو ينهى عن الذكر ، فإن وقع الذكر ، شغل الشيطان قلب صاحبه وعقله عما يقول حتى لا يعدو ذكره أن يكون شقشقة باللسان .

أما سعى الشيطان لمنع الإنسان من إقامة الصلاة فظاهر لكل ذى بصيرة ، فإذا ما وصل المرء إلى هذه الدرجة من الصدود عن الذكر وإقامة الصلاة ، وعشى عن ذكر الرحمن قيض له قرين ملازم ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (١٠٢) .

---

(٩٩) **صحيح** أخرجه مسلم (١٩٠٥) والنسائى (٣١٣٧) وأحمد (٣٢٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(١٠٠) صحيح أخرجه مسلم (٢١٤) من حديث عائشة رضى الله عنها مرفوعًا .

(١٠١) الآية (٩١) : من سورة المائدة .

(١٠٢) الآية (٣٦) : من سورة الزخرف .

**(٨) الجدال فى الله بغير علم :**

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ، كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[١٠٣] وصور الجدال لاتنتهى ، فمن دفع للإنسان من قبل الشيطان إلى تصوير الله تعالى بما لا يليق بجلاله ، أو إسناد ما يخيل إليهم الشيطان من تخيلات إلى الله فيهلكون بذلك .

ومن زعم بأن عبادتهم للأصنام إنما هى بمشيئة الله عز وجل ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾[١٠٤] .

وماجدالهم ومراؤهم هذا إلا من وحى الشياطين إليهم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[١٠٥] .

**(٩) النهى عن أكل الحلال ، وتزيين الحرام :**

إن الله سبحانه وتعالى جعل جماع الخير فى أمرين أمر بهما صفوة عباده وخاصة خلقه المصطفين من الرسل فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[١٠٦] .

---

(١٠٣) الآيتان (٣،٤) : من سورة الحج .

(١٠٤) الآيتان (٢٠،٢١) : من سورة الزخرف .

(١٠٥) الآية (١٢١) : من سورة الأنعام .

(١٠٦) الآية (٥١) : من سورة المؤمنون .

وأمر العباد بما أمر به الرسل فقال ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ - إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٠٧).

ففى مقام امتنان الله على عباده بأن أباح لهم أن يأكلوا مما فى الأرض فى حال كونه حلالاً مباحًا من الله طيبًا فى نفسه غير ضار بالأبدان ولا بالعقول - فى هذا المعرض والمقام نفسه نهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، فإنه بنزغاته سوف يحثهم ويزين لهم تحريم ما أحل الله .

جاء فى حديث عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يقول الله تعالى إن كل ما منحته عبادى فهو لهم حلال... وفيه : وإنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (١٠٨) .

إن الشيطان يزين للإنسان أكل الحرام بصور شتى ، فالرشوة هدية ، والإتاوات على قضاء مصالح العباد مجرد أتعاب ، وإذا ما وقعت بداية الانزلاق فلا نهاية له ، إلا أن يتوب الله على العبد .

**(١٠) إيقاع العداوة بين الناس :**

وللشيطان فى تحقيق ذلك وسائل لا تنتهى ، منها :

---

(١٠٧) الآيتان (١٦٨، ١٦٩) : من سورة البقرة .

(١٠٨) **صحيح** ، رواه مسلم (٢٨٦٥) واجتالتهم ، صرفتهم عن الهدى إلى الضلالة .

أ – **النجوى** : فيبدأ بتزيين الأمر إلى أحد الجلساء بالميل على جليس أخر ، والهمس إليه ، مما يثير الريبة والشك فى قلوب الجلساء الآخرين ، أو القادمين على المجلس لحظتها ، أو المنصرفين منه ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه»(١٠٩).

وقد قال الله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ، إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾(١١٠).

**ب – إثارة النزاع وقول مالا يليق :**

يقول الله تعالى : ﴿ **وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا** ﴾(١١١) ، قالوا هى تعنى أن : قل يامحمد لعبادى المؤمنين أن يقولوا – عند مجادلتهم المشركين – الكلمة التى هى أحسن من غيرها من الكلام الحسن كقوله ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ وقوله ﴿ **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا** ﴾ لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم من الاستجابة ، وربما تؤدى إلى ما نهى الله عنه ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ وهذا

---

(١١٠) – الآيتان (٩، ١٠) من سورة المجادلة .

(١١١) الآية (٥٣) : من سورة الإسراء .

كان قبل نزول آية السيف (١١٢) وقيل : قل لهم يأمروا بما أمرهم الله ، وينهوا عما نهى عنه .

وقيل : هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم .

**(جـ) تزيين شرب الخمر ولعب الميسر :**

وقد قال الله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** ﴾(١١٣).

قال فى الكشاف (١١٤) : أكد تحريم الخمر والمسير وجوه من التأكيد منها تصدير الجملة بإنما ، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام ..ومنها أنه جعلهما رجسًا كما قال ﴿ **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ** ﴾ ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت ، ومنها أنه أمر بالاجتناب، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا

---

(١١٢) انظر فتح القدير للشوكانى ، المجلد الخامس ، ص٢٣٥ ، والأمر بلين القول فى الدعوة أمر معروف ، وهو أفعل فى القلوب من إغلاظ القول والشدة فيه .

(١١٣) الآيتان (٩٠، ٩١) : من سورة المائدة ..وفى الاستفهام فيهما دليل على التوبيخ والتقريع، والبعض يراه بلاغيًا غرضه الأمر ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه – لما سمع هذا : انتهينا .

(١١٤) جار الله الزمخشرى : الكشاف ، القاهرة : دار الريان للتراث ،١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، الجزء الأول ، ص ٦٧٤، ٦٧٥ .

كان الارتكاب خيبة ومحقًا ، ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال وهو وقوع التعادى والتباغض بين أصحاب الخمر والميسر ، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلوات .

**(د) الحض على استمرار المخالفةوعدم المسالمة :**

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ، وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١١٥).

فالسلم ( بفتح السين ويقرأ بكسرها ) من معانيه الاستسلام والطاعة ، ومن معانيه الإسلام .

والأمر فى الآية - لأهل الكتاب ، أو للمنافقين ، أو للمؤمنين معهم(١١٦) ، فهو أمر بعدم إخراج اليد من الطاعة ، أو بالدخول فى الطاعات كلها ، أو فى شعب الإسلام ، وشرائعه كلها (١١٧) .

والمدار هنا على ما جاء من نهى عن اتباع خطوات الشيطان وبيان عداوته ، وأنه ينهى عن الدخول فى الإسلام أصلاً ، ليبقى الناس على الكفر ، أو على النفاق ، أو ينهى عن الامتثال الكامل لكافة شرائع الإسلام .

---

(١١٥) الآية (٢٠٨) : من سورة البقرة .

(١١٦) لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم ، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم ، أو للمؤمنين معهم لأن الدعوة للناس كافة بالدخول فى الإسلام .

(١١٧) ذكروا أنها نزلت فى أناس من اليهود أسلموا : كعبد الله بن سلام ، وثعلبة ، وابن يامين ، وأسد بن كعب ، وطائفة من اليهود استأذنوا رسول الله ﷺ أن يسبتوا ، وأن يقوموا بالتوراة ليلاً ، فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام ، والرغبة عما عداها .

### (١١) العدول عن حكم الله إلى حكم الطاغوت :

الشيطان دائم التحريض للإنسان على العدول عن حكم الله إلى حكم الطاغوت ووسائله فى تزيين ذلك لاتنتهى :

– فتارة يزين له أن تلك الأحكام الشرعية نزلت لعصر غير العصر الذى يحيا فيه ، والأيام تتغير ، وله أن يختار لحياته من الشرائع ما يناسب زمانه .

– وتارة يزين له التأويل ، وصرف الأحكام إلى ما يوافق الهوى وينحرف عن شريعة الله تحت دعوى التيسير أو الاجتهاد .

–وتارة يزين له أن فى أحكام الشريعة هذه حيفًا عليه ، وظلمًا له فى المنع عن أشياء ، أو توقيع العقوبة الرادعة عليه عند اقترافه المعصية .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٨) .

وقد وردت فى بيان ذلك الآثار :

«كان برزة الأسلمى كاهنًا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية(١١٩).

---

(١١٨) الآية (٦٠) : من سورة النساء .

(١١٩) أخرجه ابن أبى حاتم والطبرانى بسند قال السيوطى صحيح عن ابن عباس .

كان الجلاس بن الصامت قبل توبته ، ومعقب بن بشير ورافع بن زيد كانوا يدعون الإسلام ، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية ، فنزلت » (١٢٠).

«الطاغوت رجل من اليهود كان يقال له كعب بن الأشرف ، وكانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ليحكم بينهم قالوا : بل نحاكمكم إلى كعب ، فنزلت » (١٢١) .

أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً مع النبى ﷺ إلى رسول الله ﷺ فى شراج من الحرة ، وكان يسقيان به كلاهما النخل ، فقال الأنصارى : سرّح الماء يمر ، فأبى عليه ، فقال رسول الله ﷺ اسق يازبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك فى فغضب الأنصارى وقال : يارسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال : اسق يا زبير ، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك » واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد له سعة له ، وللأنصارى ، فلما أحفظ رسول الله الأنصارى، استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، فقال الزبير : ما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (١٢٢).

---

(١٢٠) أخرجه ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس .

(١٢١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس .

(١٢٢) أخرجه البخارى(٥/٢٢٧) ومسلم (٢٣٥٧) وأهل السنن .

وهذا النكوص عن الاستجابة لحكم الله وحكم رسوله ﷺ فى حياته ثم إلى الكتاب والسنة من بعده إنما هو مرض فى القلب ونفاق فى صاحبه ، أو هو وسوسة الشيطان وإغراؤه ، أو هو كلاهما ، أو هو العناد والاستكبار، ولا تنفك النفس التى بها هذا كله أو بعضه عن أن يكون للشيطان منها حظ ونصيب .

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١٢٣) .

وفى الآيات أحكام على من نزلت بشأنهم :

بأنهم كذابون فى دعوى الإيمان ، وهذا يشمل جميعهم .

وأنهم يتولون معرضين بعد القول بإيمانهم المكذوب ، وهذا يشمل فريقاً منهم .

وأنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بما أنزل الله فاجأهم الإعراض(١٢٤)،وامتنعوا عن الذهاب، إلا أن يكون حقهم فى الدعوى ظاهراً

---

(١٢٣) الآيات : (٤٧ : ٥٠) النور .

(١٢٤) أى بدا الإعراض منهم على الفور فورية الفجأة ، على أساس أن (إذا) فى الآية هى (الفجائية) .

فيذعنون ليقينهم من عدله ﷺ أما إن كان الحق عليهم فهم المعرضون .

وأنهم يستحقون التوبيخ والتقريع على ما يمكن أن يكون سببًا فى ذلك من مرض النفاق فى القلوب ، أو الارتياب والشك فى أمر نبوته ﷺ وعدله فى الحكم ، أو الخوف من الحيف عليهم وظلمهم .

ثم تقرر الحكم فيهم بأنهم هم الظالمون ، على ما تحمله كلمة (الظالمون) من المعانى .

وقد وردت فى معنى الآيات وأسباب نزولها الآثار :

- هم «أناس من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة وهم فى ذلك يصدون عن سبيل الله وطاعته ، وجهاد مع رسوله ﷺ [١٢٥] .

- « أن الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة على عهد رسول الله ﷺ فإذا ادعى إلى النبى ﷺ وهو محق أذعن ، وعلم أن النبى - ﷺ- سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى ﷺ أعرض وقال : أنطلق إلى فلان ، فأنزل الله سبحانه ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله ﴿الظَّالِمُونَ﴾ .

وقد استخرج العلماء من هذه الآيات من سورة النور :

---

(١٢٥) أخرجه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن قتادة .

- وجوب الإجابة إلى القاضى العادل العالم بحكم الله ، العادل فى حكمه،لأن العلماء ورثة الأنبياء ، والحكم من قضاة الإسلام ،العالمين بحكم الله ، العارفين بالكتاب والسنة العادلين فى القضاء هو حكم بحكم الله ورسوله ، فالداعى إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله ورسوله » (١٢٦) .

- واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق (١٢٧) .

- إن كان القاضى مقصرًا لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ولا يعقل حجج الله ومعانى كلامه وكلام رسوله ، بل كان جاهلاً جهلاً بسيطًا وهو من لا علم له بشىء من ذلك أو جهلاً مركبًا ، وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين ، واطلع على شىء من علم الرأى ، فهذا فى الحقيقة جاهل ، وإن اعتقد أنه يعلم بشىء من العلم فاعتقاده باطل ، فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم بين المتخاصمين إليه ، بل هو من قضاة الطاغوت وحكام الباطل ، فإنما عرفه من علم الرأى ، إنما رخص فى العمل به للمجتهد الذى هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة ، ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتى بعده » (١٢٨) .

---

(١٢٦) الشوكانى فى فتح القدير عند تفسير سورة النور .

(١٢٧) القول لابن خويز منداد نقلاً عن الشوكانى .

(١٢٨) الشوكانى ، فتح القدير ، تفسير سورة النور .

**(١٢) ثم تبدأ المصائب تكبر ، إن غاية الشيطان هذه المرة أن يوقع الإنسان فى الكفر :**

فكيف يعوق الشيطان الإنسان عن تزكية نفسه بالإيمان ، ويهوى به فى حمأة الكفر ؟

**(أ) منع الإنسان من التضرع عند النوازل :**

**﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (١٢٩) .

- ففى الآية بيان أنهم تركوا الدعاء والتضرع عند نزول العذاب بهم لشدة تمردهم وغلوّهم فى الكفر .

- أو أنهم تضرعوا عند نزول العذاب ، وذلك تضرع تلجئ إليه الضرورة لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع صاحبه .

- والمعنى الأول أولى بدليل قوله تعالى : **﴿ولَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾** تصلبت وغلظت **﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** فأغواهم بالاستمرار على المعاصى ، والتصميم على الكفر .

---

(١٢٩) الآيتان (٤٢، ٤٣) : من سورة الأنعام .

**(ب) تزيين الفرار من الزحف :**

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٣٠) .

فالفرار من الزحف من الكبائر الموبقات (١٣١) والشيطان فى قعوده للإنسان بكل طرقه يقعد له بطريق جهاد النفس والمال ، فيقول «تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال » (١٣٢) ؟! فإذا ما استجاب له أوبق نفسه

(١٣٠) الآيتان (١٥،١٦) : الأنفال .

(١٣١) إشارة إلى حديث « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » رواه البخارى (٢/١٠٠) ومسلم (١٦٧٧)

– هذا ، وظاهر النهى فى الآية العموم للمؤمنين فى كل زمن وفى كل حال إلا حالة التحرف والتحيز .

– وقد روى عن عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وأبى نضرة ، وعكرمة ونافع والحسن ، وقتادة ، وزيد بن أبى حبيب والضحاك ، أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية مختص بيوم بدر ، وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا ، ولوا نحازوا لانحازوا إلى المشركين إذ لم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا لهم فئة إلا النبى ﷺ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض ، وبه قال أبو حنيفة ، قالوا : ويؤيده قوله ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره﴾ فإنه إشارة إلى يوم بدر ، وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف.

– وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب فى يوم بدر .

* راجع فيما سبق فتح القدير للشوكانى ، طبع دار إحياء التراث العربى ، المجلد الثانى ص ، ٢٩٣،٢٩٤ .

(١٣٢) سبق تخريجه ، وهو صحيح .

وهلك ، والشيطان يسعى سعيه فى ذلك جاهداً ، وقد يوفق ، فتوشك النفس التى استجابت له أن تهلك ، إلا أن يتولاها الله برحمته فتتوب وتعتذر :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١٣٣).

والآية فى الذين تولوا (أى انهزموا) يوم أحد ، وقيل: إن المعنى تولوا المشركين يوم أحد **﴿إنما استزلهم الشيطان﴾** ، فقد استدعى زللهم ببعض ما كسبوا من الذنوب التى منها مخالفة الرسول ﷺ .

**(جـ) أمر الإنسان بقتل أخيه :**

وقد كان ذلك من تزيينه وإعانته ابن آدم الأول على قتل أخيه حسداً له ، واستكبارًا أن ينزل على ما أمره به أبوه مما شرع لهم فى شأن الزواج .

ولا تقع جريمة قتل إلا والشيطان معين لصاحبها على نفسه حتى يسوغ لها القتل ، فتبوء بإثمها وإثم من قتلت ظلمًا ، ويحمل ابن آدم الأول كفله من ذلك » (١٣٤) .

---

(١٣٣) الآية (١٥٥) من سورة آل عمران .

(١٣٤) إشارة إلى الحديث الذى أخرجه البخارى (٢/١٠٠) ومسلم (١٩٧٧) وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : **« لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل»** .

(د) أمر الإنسان بقتل نفسه :

وهل يقتل الإنسان نفسه ؟

والجواب : نعم ، فقد أثبتت الدراسات التى أجريت على من انتحروا قبل انتحارهم أن الشخص الذى يقدم على الانتحار إنما يصاب فى لحظة إقدامه عليه بحالة من الجنون تجعله فاقد القدرة على التصرف والسيطرة ، مما يجعله ألعوبة فى يد الشيطان ، يدفعه إلى قتل نفسه يأسًا من رحمة الله ، فيستجيب له ، ولو كانت به مسكة من عقل لاتجه بنفسه إلى حفظها وصونها بدلاً من إتلافها .

قال تعالى محذراً من إتلاف الإنسان نفسه ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾(١٣٥).

---

(١٣٥) الآيتان (٢٩ ، ٣٠) : من سورة االنساء .

وقتل النفس فى الآية يمكن أن يكون بمعنى : لا يقتل بعضكم بعضًا ، أو : لا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصى ، أو أن المراد النهى عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة ، ولا مانع من حمل الآية على كل هذه المعانى، ومما يدل على ذل احتجاج عمرو بن العاص –رضى الله عنه –بها حين لم يغتسل بالماء البارد حين أجنب فى غزاة ذات السلاسل ، فقرر النبى ﷺ احتجاجه ، وهو فى مسند أحمد ، وسنن أبى داود وغيرهما .

راجع فتح القدير للشوكانى – مرجع سابق عند تفسير الآية .

**(هـ) الأمر بالسجود لغير الله :**

عـصى الشيطان ربه فى أمـره له بالسـجود لأدم عليـه السلام ، فـخلد بذلك فى النار .

وحُذّر الإنسان من السجـود لغير الله ، ولو فعل لكـفر وشارك إبليس فى خلـوده فى النار ، قـال تعـالى : ﴿ لاَ تَسْجُدُوا للـشَّمْس وَلاَ لـلقَمَر واَسْجُدُواْ للَّه الذّى خَلَقَهُنّ إن كُنتُم إيَّاهُ تعبُدُون﴾ (١٣٦).

والمؤكد أنه ما سـجد كافر لغير الله إلا بتزيين الشيطان هـذا السجود له، وهذا مثال من القرآن ﴿ وَجئتُكَ من سَبَأ بنبَأ يَقين . إنّى وَجَدتُ امرأة تمـلكهُم وأُوتـيت من كُلّ شَىء ولَهَا عَرْش عَظيم ، وَجَدتُّهَا وقَومَهَـــا يَسْجُدُون للشّمس من دُون الله وزَيّن لَهُمْ الشـيطان أعمـالهم فصدّهم عن السـبيل فـهم لاَ يهـتدُون ، ألاّ يسجـدوا لله الذى يُخـرجُ الخبءَ فى السمـوات والأرض ويعلَم مَا تُخفُون وَمَا تُعلنون ، اللهُ لاَ إله إلاّ هُو رَبّ العرْش العَظيم ﴾ (١٣٧) .

---

(١٣٦) الآية (٣٧) : من سورة فصلت.

(١٣٧) الآيات (٢٢-٢٦) : من سورة النمل .

وعمل الشيطان فى هؤلاء : إما بتـزيين السجود لغير الله ، وإما بالصـد عن السجود لله ، وإما بمنع الاهتداء إلى أن الأحق بالسجود له هو الله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض .

والخبء : كل خبيئة (أى : أىّ شىء مخبوء فى فى السموات والأرض .

### (و) أمر الإنسان بالكفر :

وتلك عظمى المصائب ، وآية إخسار النفس وتدسيتها بدلاً من تطهيرها وتزكيتها بالإيمان بالله ، وبما أمر بالإيمان به .

فالشيطان يغرى الإنسان بالكفر ، ويزينه له ، ويحمله عليه ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣٨) فإذا ما استجاب له تبرأ منه ، وعلل التبرؤ بأنه يخاف الله، وقد قيل إن قوله بالخوف ليس على حقيقته ، وإنما هو لتوكيد التبرّى

---

(١٣٨) الآيتان : (١٦،١٧) : من سورة الحشر .

وقد قيل فى الإنسان المذكور فى الآية :

– أنه جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان.

– وقيل هو عابد كان فى بنى إسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه .

– وقيل المراد بالإنسان هنا هو أبوجهل .

– قال مجاهد : المراد بالإنسان هنا جميع الناس فى غرور الشيطان إياهم .

وقد أخرج عبد الرزاق، وابن راهويه، وأحمد فى الزهد، وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه وابن جرير (٢٨،٣٢) وابن المنذر ، والحاكم (٤٨٤/٢) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن على بن أبى طالب أن رجلاً كان يتعبد في صومعة وأن امرأة كان لها إخوة، فعرض لها شىء ، فأتوه بها ، فزينت له نفسها ، فوقع عليها ، فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : اقتلها ، فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت ، فقتلها ودفنها ، فجاءه فأخذوه فذهبوا به فبينما هم يمشون به إذ جاء الشيطان فقال : أنا الذى زينت لك فاسجد لى سجدة أنجك ، فسجد له ، فذلك قوله ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ الآية.

**وبعد :**

لقد كانت تلك أمهات وسائل الشيطان فى محاولة احتناك ذرية آدم، وتخليدهم معه فى النار، ولست أزعم أنى أحطت بوسائله حصراً ، فله من دون كل وسيلة ذكرتها وسائل ووسائل وهى- أى وسائل الشيطان – مع النفس والهوى معوقات الإنسان ومانعاته من التطهر والتزكى ، بل هى موقعاته فى الهلكة والعذاب لكن هذه العداوة من الشيطان للإنسان على ضراوتها ليست مبرراً للإنسياق أو الانزلاق ، ولا يمكن اتخاذها سبباً لقعود الإنسان عن المقاومة ، والتخاذل عن الاستمرار فى التزكى والتطهر قائلاً : وأى نجاة تتحقق لى أمام هذا الطوفان من إغراءات وتزيين الشيطان ؟

إن رحمة الله وعدله لا يتركان الإنسان دون حماية أمام طغيان وسائل التزيين والإغراء ، وقد تأكدت هذه الرحمة من الله وهذا العدل منه سبحانه بما يأتى :

بالإخبار عن العداوة المتأصلة بين الشيطان والإنسان مع شرح أسبابها وبيان وسائل الشيطان فى النفاذ إلى غرضه من إهلاك الإنسان :

﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾(١٣٩) .

---

(١٣٩) الآية (٢٧) من سورة الأعراف .

﴿..وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٤٠) .

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٤١) .

والآيات فى ذلك كثيرة جداً ، لا تقف عند حدود التحذير ، بل تبين العاقبة التى تنتظر من يتردى فى حبائل الشيطان .

﴿..وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾(١٤٢) .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (١٤٣).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ، ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا . ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ (١٤٤) .

---

(١٤٠) الآيتان (٦١،٦٢) : من سورة الزخرف .

(١٤١) الآية (٦) : من سورة فاطر .

(١٤٢) الآية (١١٩) : من سورة النساء .

(١٤٣) الآيتان (٦٨،٦٩) : من سورة مريم .

(١٤٤) الآيتان (٨٣–٨٥) : من سورة مريم .

بل إن آيات القرآن الكريم تعدت التصريح بالعداوة وبيان عواقب الاستجابة للشيطان إلى ذكر تفاصيل ما سيكون عليه الموقف يوم القيامة بين الشيطان وأتباعه .

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ، مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٤٥).

وتبلغ رحمة الله بالإنسان حد تسليحه بما يرد عنه كيد الشيطان ويجعله فى مأمن من كيده .

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١٤٦) وتزداد الرحمة من الله بالإنسان حين ترسم له الآيات الكريمة تفصيلاً كيف يتقى كيد الشيطان :

- إن أهم الوسائل على الإطلاق هى الإيمان بآيات الله والعمل بما جاء فيها ، لأن الشيطان لا يستطيع السيطرة على من يتحصن بآيات الله : إيمانًا وفهماً وتنفيذاً ، فإذا ما أعرض عنها ، وانسلخ منها غوى ، واتبعه الشيطان .

---

(١٤٥) الآية (٢٢) من سورة إبراهيم .

(١٤٦) الآية (٨٤) : من سورة النساء .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[147].

– وهى معرفة الذين يتخذون الشيطان وليًا ، ويتخذهم الشيطان أولياء ، يتنزل عليهم بالإفك .

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[148] والأفاك الأثيم هو الذى ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [149].

– وهى اللجأة الاستعانة بالله والاستعاذة به من الشيطان وأوليائه ، وهى تكفى – إذا خلصت اللجأة فيها إلى الله لطرد الشيطان وإبعاد نزغه .

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[150].

---

(١٤٧) الآيتان (١٧٥، ١٧٦) : من سورة الأعراف .

(١٤٨) الآيتان (١٢١، ١٢٢) : من سورة الشعراء .

(١٤٩) الآية (٨) : من سورة الجاثية .

(١٥٠) الآية (٢٠٠) : من سورة الأعراف .

- وهى التذكر الدائم لله ، فإن ألمّ بالإنسان شىء من وساوس الشيطان أسرع إلى ذكر الله يحتمى به لتزول عنه غشاوة الوسوسة الشيطانية ، ويعود إليه بصر التقوى والتزكى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ ﴾ (١٥١).

- ولا يتمكن الشيطان من الاستحواذ على إنسان إلا إذا عشيت عيناه عن ذكر الله ، فأعرض عن منهجه ، وصارمن حزب الشيطان :

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرحـــمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(١٥٢).

﴿اسْتَحْـــوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٥٣).

وأختم برد اثنتين من الدعاوى الباطلة الى تتردد على ألسنة الذين استخزوا أمام الشيطان ، فامتطى منهم ظهور الطاعة وساقهم إلى حيث الضلال البعيد ، والهلاك الأكيد .

---

(١٥١) الآيه (٢٠١) : من سورة الأعراف .

(١٥٢) الآية (٣٢) : من سورة الزخرف .

(١٥٣) الآية (١٩) : من سورة المجادلة .

**أما الدعوى الباطلة الأولى :**

فقول أحدهم إذا رأيت طاعته للشيطان وانغماسه فى الخطأ ، وبعده عن التطهر والتزكى أن يقول : وماذا أفعل ؟ هذا مقدر مكتوب ، إنه أمر الله.

وإبطال هذه الدعوى الكذب لايحتاج جهداً فى الرد والتنفيذ :

إنه لم يكن أمر الله أبداً ، وإنما هو أمر الشيطان .

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ، فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(١٠٤).

إنه لم يكن أمر الله إذن ، وإنما كان أمر الشيطان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾(١٠٥)، فمن أين جاءهم هذا الوهم الباطل ؟! .

وكيف لا يبصرون قول الله تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾(١٠٦).

(١٠٤) الآيات (٢٨-٣٠) : من سورة الأعراف .

(١٠٥) الآية (٩٠) : من سورة النحل .

(١٠٦) الآية (٢٦٨) : من سورة البقرة .

**وأما الدعوى الباطلة الثانية :**

فهى نسبة البراعة وقوة الحيلة إلى الشيطان ، ونسبة العجز أمام مكره إلى الإنسان ، بقول أتباع الشيطان : « الشيطان شاطر» يزعمون أن كيده لا يرد ، وحيله لا تدفع إنها لم تكن أبدًا قوة الشيطان ، وإنما هى ضعف القائل بهذه الحجة الواهية ، ولم يكن كرُّ جيوش الشيطان عليه عاتيًا ، بل كان قعوده هو عن قتال الشيطان وجنده أمرًا مخزيًا ، وإلا فأين هو من هذا الأمر الإلهى الواعد بالنصرة لمن قاتل الشيطان وأوليائه **﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾** [157].

ولو أن قلب هذا امتلأ بالثقة بالله لذهب عنه خوفه من الشيطان ، وتخويف الشيطان أولياءه ، ولكان مع هذا الحق الواضح **﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**[158].

إن عبودية هذا الزاعم براعة الشيطان لم تكتمل لله ، ولو تمت منه العبودية لله لبسط الله تعالى عليه حمايته ، ولجرد الشيطان من كل سلطان عليه :

---

(١٥٧) الآية (٧٦) : من سورة النساء .

(١٥٨) الآية ( ٦٥) من سورة الإسراء .

﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِين﴾(١٥٩).

﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ (١٦٠).

﴿إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون . إنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ، وَالذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُون﴾ (١٦١).

ولا يبقى إلا الدعاء وصدق اللجاة إلى الله .

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُون﴾ (١٦٢).

«أعوذ بكلمات اله التامات من شر عقابه ، وشر عباده وشر همزات الشياطين وأن يحضرون » .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١٥٩) الآية (٤٢) : من سورة الحجر .

(١٦٠) الآية (٦٥) : من سورة الإسراء .

(١٦١) الآيتان (٩٩، ١٠٠) : من سورة النحل .

(١٦٢) الآيتان (٩٧، ٩٨) : من سورة المؤمنون .

# الفهرس

رقم الإيداع : ٩٣/٩٩٦٨
I. S . B . N : 977 - 272 - 134 - 1

مطابع الوفاء - المنصورة